



إحسانات بايات تونس لافتراء الأسرى المغاربة في النصف الأخير من القرن 18م من خلال
الدفاتر الجبائية بالأرشيف الوطني التونسي.

The Charities of Tunisian Beys to ransom of megrabianne prisoners in the latter half
of the eighteenth century through the tax books in the Tunisian archives.

فاطمة درعي

جامعة معسكر، الجزائر

draifatima1976@yahoo.com

عامر شرقي (*)

جامعة معسكر، الجزائر

ameur.chergui@univ-mascara.dz

تاريخ النشر: 2020/12/31

تاريخ القبول: 2020/10/11

تاريخ الإيداع: 2020/05/11

الملخص:

تشكل المادة الأرشيفية الموجودة بالأرشيف الوطني التونسي عامة والدفاتر الجبائية رقم 180- 2144 -2145 خاصة، مادة تاريخية خصبة لما تحتويه من معلومات هامة تساعد في كتابة التاريخ الجزائري خلال العهد العثماني، كما تبين لنا هذه الدفاتر مدى إدراك بايات تونس الحسينيون لأهمية التعاون بين الإيالات لتعزيز استقرار المنطقة وتثبيت السلطة المركزية بها، ومن أجل ذلك فقد خصصوا خلال النصف الثاني من القرن 18م مقدارا هاما من الهدايا التي وردت باسم الإحسانات، قدّموها إلى مختلف فئات المجتمع داخل الإيالات المغربية، جاعلين جزء من تلك الإحسانات لفائدة المغاربة الموجودين في الأسر، وهذا ما يعبر عن روح التضامن والتعاون التي كانت سائدة فيما بين الإيالات.

الكلمات الدالة:

الأسرى، إيالة الجزائر، إيالة تونس العلاقات، الأسرة الحسينية، الإحسانات.

Abstract:

Abstract:

The Tunisian National Archives especially the tax books N 180 - 2144 -2145, shapes an important of informations to rewrite the algerian history in The Ottoman

(*) المؤلف المرسل: شرقي عامر : ameur.chergui@univ-mascara.dz



period. This tax books shows us how the Tunisian Beyes realized the importance of cooperation between the Mediterranean Regencies. And its shows us how thy realized the importance of cooperation between the this regencies, in order to guaranted the security and the stability of the region, and strengthening the authority of the center.

For that and in in the second half of the 18th century, the tunisian bayes gives an important amount of gift and charities to various segment of society in the Megrabianne Regencies, and thy gived a parte of this Charities to the megrabianne prisoners, and this what expesses a sense of solidarity between the Megrabianne Regencies.

Key Words:

Captives; piracy; regency of Algiers; regency of Tunis; relations; Husseiny family.

1. مقدمة:

خضعت العلاقات بين إيالات الحوض الغربي للمتوسط لعدة مؤثرات ساهمت في قلب تلك العلاقات، وقد حاول بايات تونس الحسينيون إرساء نوع من العلاقات التي تتميز بالمهادنة وتجنب الصرعات مع إيالات الجوار المغربي، ومن أجل تحقيق ذلك فقد اتبع حكام تونس خلال النصف الثاني من قرن 18م سياسية تقوم على تقديم الهدايا (الإحسانات) للإيالات المجاورة كأسلوب لإرساء الأمن وكسب الشرعية لدى الفئات المحلية.

وقد تضمنت الدفاتر الجبائية رقم 180، 2144، 2145 معطيات كبيرة ومتنوعة عن حجم تلك الإحسانات والجهات التي استفادت منها، سواء كانت من السلطة الحاكمة أو شيوخ ورجال القبائل أو العلماء وغيرهم وقد خُصص نصيب من هذه الإحسانات لافتداء الأسرى المسلمون في أوروبا، وهو ما يعبر عن وجود تضامن إسلامي لمساندة الأسرى المسلمين وتخليصهم من الأسر، حيث سجلنا من خلال الدفاتر الثلاثة وجود 39 أسير من الإيالات المغاربية شملهم نصيب من تلك الإحسانات المخصصة للافتداء.

2. التعريف بالدفاتر الجبائية رقم 180-2144-2145.

الدفتري رقم 180: خطه جيد واضح ، تضمن قائمة بمصروف الدولة تاريخه يبدأ من 1186هـ¹.

الدفتري 2144: حالته جيدة وأوراقه يبدو أنها قاومت عوامل الزمن، خطه مقروء، عدد صفحاته 376 صفحة²، تضمن قائمة بإحسانات وصدقات وهدايا للبعض من سكان البلاد



التونسية والبلاد المجاورة بما فيها الجزائر، وهو يغطي الفترة الزمنية 1170هـ-1192هـ/1756م-1779م³.

الدفتري 2145: حالته جيدة وخطه مغاربي مقروء، عدد صفحاته 291 صفحة، تضمن قائمة بإحسانات وصدقات لفائدة بعض سكان البلاد التونسية والبلاد المجاورة بما فيها الجزائر، يغطي الدفتري الفترة الزمنية ما بين 1191-1197هـ/1777(1778)-1782 (1783)م⁴.

3. القرصنة المتوسطية وظاهرة الأسر والاسترقاق

تختلف المصادر التاريخية فكيفية تناولها لظاهرة النشاط البحري العسكري في المتوسط. فالأوروبيون يستعملون مصطلح القرصنة والقراصنة للدلالة على النشاط البحري الممارس في المتوسط. فنجد أن ديبغو دوهايدو المتوفي سنة 1608م قد استعمل مصطلح القرصنة Corsaires حين حديثه عن البحرية الجزائرية، حيث اعتبر القراصنة ألائك الذين يمتنون ركوب البحر باستمرار⁵. وبالبحث عن مفهوم كلمة Corsaires فهي كلمة تطلق على السفن المسلحة التي يحصل طاقمها على تفويض أو ترخيص من حكومته للاستيلاء على سفن الدول الأخرى⁶، ونفهم من هذا التعريف أن الدول الأوروبية قد سعت إلى تنظيم القرصنة وتقنيها بمنح تراخيص لمن يمارسها، أما من لا يحمل الترخيص فقد سمته المصادر الأجنبية بـ Pirate أي اللص (الصوصية) المغامر الذي يجوب البحر للسطو على السفن⁷. بالرجوع إلى فونتير دي بارادي الذي عاش في القرن 17م نجده قد استعمل حين حديثه عن البحرية الجزائرية مصطلح القرصنة والقراصنة الجزائريين، وقد قرن دي بارادي القرصنة بالجيش⁸، فنفهم بذلك أن القرصنة كانت بترخيص من دايات الجزائر.

في حين يستعمل المؤرخون المسلمون لفظ الجهاد البحري أو الغزو البحري حين حديثهم عن العمليات البحرية العسكرية، فابن خلدون الذي عاش في القرن 14م وفي مستهل حديثه عن الأسطول في دولة الإسلام فإنه يستعمل مجموعة من الكلمات التي تعطي للنشاط البحر العسكري صبغة دينية مثل الغزو والجهاد، الجهاد فيه، مراسم الجهاد، كما سعى انتصار أساطيل المسلمين فتحا وغنيمة⁹، كما يصف أسطول أبي الحسن ملك زناتة قائلاً: "فإن أساطيله كنت عند مرامه الجهاد مثل عدّة النصرانية وعديدهم"¹⁰.

ابن رقية التلمساني مؤرخ آخر عاش إلى غاية أواخر القرن 18م يذكر لنا كيف وصف سكان مدينة الجزائر الأخوة ببربروس حين طلبوا منهم النجدة فقالوا لهم "سمعنا بكم أناسا تحبون الجهاد... فهنيئاً لكم أيها المجاهدون"¹¹، ومن خلال ذلك نفهم بأن المسلمون قد اعتبروا



أن جميع من يركب البحر من أجل نشر الإسلام أو لصد عدو يستهدف المسلمين أو لتحرير أرض مسلمة أو لمساعدة المسلمين في منزلة المجاهدين الذين يستحقون الأجر والثواب من الله عز وجل، ويستحقون كذلك التقدير والتبجيل من عوام المسلمين. لذلك فإن القرصنة الإسلامية هي فعل مضاد للقرصنة الأوروبية، فهي تعبر عن الرفض للهيمنة الأوروبية وتهديدها¹².

وإلى جانب القرصنة، هناك نشاط حربي آخر سماه المؤرخون بـ"قورصو-لصوصية البحر" الذين كانوا يهاجمون السفن دون مراعاة حالات السلم التي تكون بين دولة السفينة المعتدية ودولة السفينة المعتدى عليها¹³. ولم تكن القرصنة نشاطا إسلاميا خالصا فقد مارسته الإمارات الإيطالية، بالما، مايورقا، إسبانيا، مالطة، ليفورن...¹⁴، ومارسه الفرنسيون والانجليز والهولنديون وارتبط ازدهار نشاط القرصنة (الغزو البحري) بما يدره من عوائد كبيرة جراء بيع الغنائم سواء كانت سلع أو أسرى.

شكل بيع واقتداء الأسرى القسم الأكبر من عوائد القرصنة، حيث تزودنا المصادر التاريخية عن الأعداد الكبيرة للأسرى في أهم المدن المتوسطية خلال العصر الحديث، ففي مدينة تونس قد بلغ عدد الأسرى الذين تم اقتداؤهم خلال النصف الثاني من القرن 17م حوالي 1473 أسير من قوميات أوروبية مختلفة¹⁵.

في حين بلغ عدد الأسرى الأوروبيين في المغرب الأقصى خلال العهد العلوي حوالي 820 أسير في سنة 1708، و 748 أسير سنة 1723¹⁶. أما في مدينة تونس فقد بلغ عدد الأسرى الأوروبيين حوالي 1000 أسير سنة 1806 ثم 1600 أسير عام 1810، وفي مارس 1811 فقد بلغ عددهم 1200، وهذا العدد الكبير من الأسرى قد صادف نمو النشاط البحري لتونس في عهد حمودة باشا. أما مدينة طرابلس الغرب فقد بلغ عدد الأسرى فيها أثناء حملة اللورد اكسماوث سنة 1816م قرابة 580 أسير¹⁷.

وقد كان لمدينة الجزائر النصيب الأوفر من عدد الأسرى الأوروبيين داخل سجونها، وذلك راجع لقوة الأسطول الجزائري ونشاطه الكبير ضد السفن الأوروبية المعادية، فحسب ما ترويه لنا المصادر فقد بلغ عدد الأسرى في الجزائر حوالي 25 ألف أسير سنة 1578، ليرتفع عددهم إلى 30 ألف أسير عام 1635 ويُقدم لنا الجدول التالي بعض الأرقام حول الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال القرن 18م¹⁸:

السنة	1795	1799	1802	1811	1813	1815	1816
عدد الأسرى	630	1050	937	1494	1645	1487	1065

في الجانب الآخر من الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط فإنه كان يوجد بمدنه آلاف الأسرى المسلمين الذين تم أسرهم أثناء الاشتباكات البحرية أو أثناء الهجمات البحرية ضد المدن الإسلامية في الجنوب. ففي إسبانيا وعلى مدار القرن 18م فقد بلغ عدد الأسرى فيها حوالي 10 آلاف أسير من المغاربة والأتراك¹⁹، بل يذهب البعض إلى أنه خلال القرن 17م بلغ عدد العبيد في إسبانيا حوالي 100 ألف²⁰ وهنا يدخل ضمن العبيد ما تمّ أسره في المعارك البحرية. جزيرة مالط التابع لعرش أسرة هابسبورغ الاسبانية كانت مركزا للقرصنة الأوروبية وسوقا للأسرى، فقد أسرت السفن المالطية حوالي 4 آلاف أسير خلال الفترة الممتدة ما بين 1654 إلى 1674 ، بمعدل 200 أسير في السنة، وقد تم تشغيل نسبة كبيرة منهم كمجدفين في السفن المالطية.

ويمكننا في ما يلي أن ننقل بعض الأرقام حول الأسرى في جزيرة مالطة²¹:

السنة	1548	1569	1576	1582	1590	1599	1632	1669
العدد	≤ 400	حوالي 400	400	800	1405	1800	2046	2390

الامارات الإيطالية كان لها نصيب كبير من أعمال القرصنة والأسر، ففي سنة 1723 تمكنت السفن البابوية من أسر نحو 415 أسير من مختلف الأقطار الإسلامية، وكان الجزائريون يشكلون النسبة الأكبر بـ 114 أسير²².

وقد شكلت المدن الإيطالية مثل ليفورنو، جنوة، البندقية، صقلية، أسواقا كبرى لبيع وشراء الأسرى، فمدينة ليفورنو لوحدها قد تدفق عليها خلال الربع الأول من القرن 17م حوالي 10 آلاف أسير²³.

4. افتداء الأسرى المغاربة من خلال الدفاتر الجبائية:



ورد في الدفاتر الجبائية الثلاثة ذكر لاسم 39 أسير مغاربي تم فديتهم، إضافة إلى أسير جزائري مجهول الإسم تم ذكره أثناء افتداء أسير تونسي كان معه²⁴، ولم تتضمن الدفاتر على لفظ الفدية أو الفداء وإنما ورد لفظ إحسان مثل: "إحسان للرايس أحمد الكرغلي العنابي الأسير بمالطة"²⁵، والمتعارف عليه أن لفظ إحسان يفيد معنى الهدية أو الخراج أو الصدقة، غير أن ما يدفعنا إلى القول أن معنى "إحسان" الوارد في هذه الدفاتر يفيد كذلك معنى الفدية والفاء، هي الصورة التي وظّف فيها لفظ "إحسان" فنجد أنه قُرّن في حالات كثيرة بذكر اسم المستفيد وحالته والمكان الموجود فيه فمثلا: "إحسان لسالم بن علي الصفاقسي أسير مالطة" وفي مكان آخر فقد ورد حرف الجر الذي يفيد المكان مثل: "إحسان لأحمد بن علي الصفاقسي أسير في مالطة"²⁶، ومما لا شك فيه أن الهدية لا تكون لأسير مازال في الأسر بغير بلاد المسلمين، وعليه فإننا نرى أنّ هذه الإحسانات هي في الحقيقة أموال قدّمها بايات تونس لافْتداء أسرى مسلمين في أوروبا.

افتداء الأسرى التونسيين:

أظهرت السلطة الحاكمة في تونس أهمية كبيرة لمسألة افتداء الأسرى، حيث تعددت طرق افتدائهم سواء من خلال الجهود الرسمية أو من قبل الفئات الشعبية. فابن عظم في رسائله تحدث عن الكيفيات التي كان يتم بها افتداء التونسيين، إما بأن يقوم الأسير بافتداء نفسه بنفسه، أو أن يقوم أقاربه بافتدائه وذلك بالاستعانة بالوسطاء والتجار للقيام بالعملية مقابل مبلغ معين²⁷.

وقد مارس اليهود في إيالة تونس تجارة افتداء الأسرى مقابل الربح واشتهرت منهم العديد من العائلات منذر منها : عائلة لمبروزو، عائلة دورمون، والتاجر فرنكو إبراهيم، وقد كان هؤلاء اليهود ينشطون أكثر في الاستثمار في افتداء الأسرى الأوروبيين، حيث تمكنوا خلال الفترة الممتدة من 1681 إلى 1705 من القيام بحوالي 115 عملية افتداء²⁸، لكن هذا لا ينفي أنهم قد استثمروا في افتداء الأسرى التونسيين ما دامو يحققون ربحا جراء ذلك.

لقد كانت عمليات الاتجار في افتداء الأسرى رائجة أواخر القرن 16 والعقود الأولى من القرن 17م، ومثال ذلك وجود شركة بين تونسي وأربعة من النصارى مهمتها افتداء الأسرى التونسيين المتواجدين في أوروبا، إلا أنها لم تستمر طويلا بسبب المشاكل التي واجهتها من بينها فرار هؤلاء الأسرى وعدم التزامهم بدفع قيمة الفدية لأصحاب الشركة²⁹.



وكان للمحسنين ورجال الدين الصوفيين مساهمة في تحرير الأسرى التونسيين، من بين هؤلاء نذكر أبو الغيث القشاشي³⁰ الذي افتدى أسرى الحمامات حين هاجمها فرسان مالطة سنة 1602 ودفع في سبيلهم 18 ألف دينار وبقي مدانا بـ 400 دينار، وأهداه أحد الميردين بقسنطينة سرجين فباعهما وافتدى به الأسرى، وفي تاريخ 19 أفريل 1602 قام الشيخ القشاشي بافتداء الحاج الطرابلسي السوسي ومعه امرأة تدعى "منا" كانا أسيرين في باليرمو³¹، وهنا تستوقفنا الحاليتين لما تحتويه من مظاهر التضامن بين الفئات الشعبية للإيلات، والتي تتجسد في قيام المرید الذي هو من قسنطينة بتقديم سرجين كصدقة وتبرع للشيخ القشاشي الذي كان معروفا بفعل الخير، والثانية هو أن الشيخ لم يميز بين الأسرى الذين حرص على افتدائهم فنجدد يفتدي الحاج الطرابلسي السوسي والذي يتبين لنا من خلال اسمه أنه من طرابلس الغرب ويقيم بسوسة.

من جهة أخرى فقد كان للسلطة التونسية دور كبيرة في افتداء الأسرى التونسيين، ويتجلى لنا ذلك بوضوح من خلال تتبعنا للمعاهدات التي وقعت الإيالة مع باقي القوى الأوروبية في مقدمتها فرنسا، فقد تضمنت معاهدة أوت 1605 بندا نصّ على تبادل الأسرى بين فرنسا وتونس، وقد تم استعمال عبارة "الأتراك والمسلمين المسجونين يجب إطلاق سراحهم"³²، وما يهمنا في هذه الصياغة أن حكام تونس لم يشترطوا أن يكون الأسرى من تونس فقط بل أعطوا لأنفسهم الحق في تمثيل كل الأسرى المسلمين المتواجدين في فرنسا، لكن هذا الشعور بالتضامن مع الأسرى المسلمين على اختلاف أوطانهم سوف يتغير مع مرور الوقت، ففي معاهدة سلم مؤرخة في 07 رمضان 1155 (1742) بين تونس وفرنسا، تضمنت بندا نصه ما يلي: "تعهد حاكم تونس أن يرّد جميع الفرنسيين الذين أخذوا تحت سنجق الفرنسيين في البحر... وكذلك الوكيل (كذا) لزم نفسه على أن سلطانه يرّد لحاكم تونس جميع الأسرى المسلمين الذين من تونس وعمالتها"³³، وهنا نلاحظ أن المعنيين بالافتداء هم الأسرى المسلمين الذين يثبتون انتماءهم إلى تونس، هذا التحول في الشعور الرسمي التونسي لا يمكن تفسيره إلا من باب واحد وهو تراجع القوة البحرية التونسية الذي قابله تنامي قوة فرنسا.

وكانت هذه السياسة التونسية متبعة مع باقي القوى الأوروبية ففي عهد عثمان داي³⁴ سنة 1610 تم السماح لأسرى مالطيين بأن يُرسلوا من ينوب عنهم إلى مالطة، من أجل افتداء أتراك تونس مقابل إطلاق تونس لسراحهم³⁵.

الأسرى الذين تم افتدائهم وفق ما جاء في الدفتر الجبائي رقم 2144:



الصفحة	السنة	مكان الأسر	موطنه	اسم الأسير
2	رجب 1179	مالطه	صفاقس	احمد بن علي الصفاقسي
2	جمادى الأولى 1185	//	//	الحاج سفيان الصفاقسي
4	1172	---	//	أسير صفاقسي
//	شعبان 1174	---	//	أسير صفاقسي
//	1178	إسبانية	//	أسير صفاقسي
//	26 رجب 1183	مالطه	---	علي بوبصاح القرقي
//	10 رجب 1184	نابل	صفاقس	محمد بن علي (كذا) الصفاقسي
//	14 رمضان 1184	مالطه	---	احسان لسالم (كذا)
//	جمادى الأولى 1185	//	الصفاقسي	حسين بن محمد الصفاقسي
//	رمضان 1185	//	---	محمد بن الرايس (كذا)
//	ربيع الثاني 1186	//	صفاقس	سالم بن علي الصفاقسي
//	جمادى الثاني 1186	//	---	أحمد بن محمد القرقي
176	الأربعاء 25 ربيع الثاني 1170	بر النصارى	---	أسير جزائري
205	2 رجب 1182 هـ	مالطه	عنابة	الرايس أحمد الكرغلي العنابي
//	2 رجب 1182 هـ	مالطه	عنابة	أحمد العنابي
//	25 شعبان 1184 هـ	مالطه	عنابة	أحمد (نفوس) العنابي
//	صفر 1186 هـ	قرطاجنة	عنابة	أحمد البوني العنابي



الحاج محمد الجيجلي	جيجل	مالطة	23 ربيع الثاني 1187هـ	//
الحسن بن إبراهيم البجائي	بجاية	مالطة	26 حجة 1187هـ	//
محمد العنابي	عنابة	مالطة	17 محرم 1188هـ	//
رمضان العنابي من جيجل	جيجل	اسبانيا	15 رجب 1188هـ	//
مصطفى الحنفي العنابي	عنابة	مالطة	1188هـ	//
أسير من القل	القل	قرطاجنة	22 صفر 1189هـ	//
أسير من جيجل	جيجل	قرطاجنة	22 صفر 1189هـ	//
محمد (الورداني) العنابي	عنابة	-----	1189هـ	//
مصطفى بن الحسن الحنفي العنابي	عنابة	مالطه	غرة محرم 1190هـ	//
امراة من القل	القل	مالطا	7 شعبان 1190هـ	//
رمضان التلمساني	تلمسان	-----	27 رمضان 1182هـ	279
فاطمة التلمسانية	تلمسان	اسبانيا	ربيع الأول 1183هـ	//
خليل التلمساني	تلمسان	مالطا	13 رمضان 1183هـ	//
أسير مستغاني	مستغانم	-----	شوال 1173هـ	281
عمر المستغاني	مستغانم	اسبانيا	04 ربيع الثاني 1183هـ	//
صالح بن محمد الغربي	مستغانم	جنوة	03 حجة 1189هـ	//

أما الدفتر الجبائي رقم 2145 فقد ذكر فيه إسمين لأسيرين جزائريين قد تم فداؤهما وذلك حسب ما يوضحه الجدول:



اسم الأسير	موطنه	مكان الأسر	السنة	الصفحة
علي (كذا) صادق التلمساني	تلمسان	-----	30 محرم 1191	231
مصطفى التلمساني الحنفي	تلمسان	مالطة	1191	//

أما الدفتر الجبائي رقم 180 فقد ورد فيه اسم لأربعة أسرى استفادوا من هذه الاحسانات وهم كالتالي:

اسم الأسير	موطنه	مكان الأسر	السنة	الصفحة
صالح الجزائري	الجزائر	(جاء من) مالطه	28 ذي الحجة 1186	178
محمد حسن الجزيري	الجزائر	-----	شهر رجب 1186	94
عبد الله بن عتيق الطرابلسي	طرابلس الغرب	مالطه	28 ذي الحجة 1186	178
سالم بن محمد الطرابلسي	طرابلس الغرب	(جاء من) مالطه	شهر رجب 1186	94

من خلال المعلومات التي جمعناها من الدفاتر الجبائية الثلاثة، فإنه يمكن أن نلاحظ أن عدد الأسرى (تونس، جزائريين، طرابلسيين) الذين تم فداؤهم بلغ عددهم 39 أسيراً، والجدول التالي يوضح ذلك:

البلد	إيالة تونس	إيالة الجزائر	إيالة طرابلس الغرب
عدد الأسرى	12	25	02

نلاحظ من خلال ما سبق أن الأسرى الجزائريون شكلوا حصة الأسد من إجمالي الأسرى المذكورين في هذه الدفاتر الثلاثة. وكذا فإن جميع الأسرى المذكورين كانوا مسجونين في أراضي تابعة للعرش الإسباني، وبالأخص المدن الإيطالية التي بلغ عدد الأسرى فيها 25 أسيراً، منهم 22 كانوا بجزيرة مالطة، وربما ذلك راجع إلى قرب المسافة بين تونس والمدن الإيطالية وكذا شهرة هذه المدن باعتبارها سوقاً للأسرى. أما بخصوص التوزيع الجغرافي للأسرى فنجد أنه من أصل 12 أسير تونسي فإن 08 منهم من مدينة صفاقس، وهذا راجع للنشاط البحري الذي



تميزت بها هذه المدينة، أما الجزائريين الذين تم افتدائهم فإن 14 منهم من بايلك الشرق وبالخصوص من مدينة عنابة، التي بلغ عدد أسراها المفتدين 10 اشخاص، أما بايلك الغرب فبلغ عدد الأسرى المنتسبين إليه 08 منهم 05 من تلمسان. أما الأسرى الطرابلسية والبالغ عددهم أسيرين فقط فهم يُنسبون من خلال أسمائهم إلى طرابلس الغرب.

الملاحظ من خلال العدد الإجمالي للأسرى المستفيدين من هذه الإحسانات والبالغ 39 أسيراً خلال 21 سنة، أنه عدد صغيرٌ مقارنة بأعداد المغاربة الموجودين في الأسر، وربما ذلك راجع إلى ما عُرف عن الأسباب من تشددهم ورفضهم إطلاق سراح الأسرى المسلمين وذلك من أجل الاستفادة منهم كمجدين في السفن أو عمال في الورشات وغيرها من المهن الشاقة، كما أن هذا العدد يمثل فقط ما ورد في الدفاتر الثلاثة دون غيرهما، وبالتالي فهو جزء من مجهودات السلطات الرسمية التونسية في ما يتعلق بافتداء الأسرى، ونحن لا نستبعد أن يكون عدد الأسرى المغاربة الذين تم افتدائهم بتبرعات وصدقات المحسنين في تونس أكبر من العدد الذي ورد ذكرهم في هذه الدفاتر.

5. غايات بايات تونس من افتداء أسرى الإيالات المغاربة:

تميزت العلاقات بين الإيالات الثلاثة خلال الفترة الزمنية الممتدة ما بين 1170هـ إلى 1197هـ (1756م إلى 1783م) (وهي الفترة الزمنية التي تغطيها الدفاتر الجبائية) بالتأرجح ما بين السلام والصراع، وإن كانت العلاقات التونسية الطرابلسية أكثر ميلاً إلى الهدوء والسلام، فعلى النقيض من ذلك كانت العلاقات مع الجزائر أكثر توتراً، فتاريخ 1756م يصادف الحملة الجزائرية على تونس والكاف التي ترتب عنها تغيير القيادة السياسية في تونس واستبدالها بقيادة جديدة تحت هيمنة الجزائر، ومنذ هذا التاريخ حرص بايات تونس الجدد على استرضاء الجزائريين وكسب مودتهم تجنباً لمقاتلتهم، فنجد أن الباي علي بن الحسين أول البايات الحسينيين قد قدّم هدايا كبيرة في شكل إحسانات إلى الجزائريين³⁶، وهي عادة دأب عليها أبناؤه من بعده، ونظراً لاختلاف موازين القوى بين الإيالات فإن التونسيين قد اهتموا طيلة هذه الفترة بالحفاظ على علاقات حسنة مع الجزائر لتجنب الحرب، بالرغم من كثرة الحوادث التي كان من شأنها أن تعكر صفو الأجواء بينهما. ومما لا شك فيه أن تلك الإحسانات التي قُدمت من أجل افتداء بعض الأسرى الجزائريين، لا تخرج عن كونها شكلاً من أشكال السعي التونسي لكسب مودة الجزائر وعطفها، لكن لا بد لنا أن نتساءل عن المعايير التي على أساسها تم اختيار هؤلاء 25 أسيراً جزائرياً لفديتهم.



إن الدفاتر الجبائية التي بحوزتنا لا تذكر لنا المكانة الدينية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو العسكرية لهؤلاء الأسرى الجزائريين، أو علاقتهم بالسلطة في تونس، وبالرغم من غموض هذه الجزئية الهامة، إلا أننا نستبعد من أن تكون عملية اختيار هؤلاء عشوائية وذلك لعدة أسباب هي:

- أن عدد الأسرى الـ 25 الذين تم افتدائهم هو قليل مقارنة بعددهم الكبير في السجون الأوروبية، وخاصة وأن العملية تمت على امتداد حوالي 21 سنة.

- إن من بين الـ 25 أسيراً الذين تم افتدائهم، فقط ثلاثة منهم قُرنَت أسماؤهم بصفات تمكننا من التعرف على مكانتهم، فنجد الأسير: الرئيس أحمد الكرغلي العنابي والذي من المرجح من خلال كلمة الرئيس أنه قائد سفينة جزائرية، أما الأسير الثاني وهو مصطفى بن حسن الحنفي العنبي، وآخر مصطفى الحنفي، والظاهر من ذكر المذهب الفقهي للأسيرين أنهما ذو مكانة دينية قد تكون الافتاء.

- إن المتتبع لجل الاحسانات التي قدمها بايات تونس يجد أنها كانت موجهة بالدرجة الأولى لشخصيات ذات مكانة في المجتمع الجزائري، وفي أحيان كثيرة كان هؤلاء المستفيدون من الهدايا يتمتعون بمناصب دينية أو سياسية أو يحظون بمكانة اجتماعية، مثل الهدايا التي قُدمت لشيخ الحنانشة، وتلك التي قُدمت للزويا والمشايع كزاوية خنقة سيدي ناجي، أو تلك الهدايا التي كانت ترسل بانتظام لبابليكات الجزائر³⁷، وما الاحسانات التي حُصصت لافتناء بعض الأسرى الجزائريين إلا جزء يسير من الخط العام الذي سار عليه بايات تونس بالإحسان إلى الشخصيات ذات المكانة أو التي تمارس مهنة أو سلطة حساسة.

- وإذا اتفقنا على أن هذه الاحسانات كان الغرض منها كسب مودة الجزائريين وعطفهم لأسباب سياسية كثيرة لسنا بصدد البحث فيها، فإن الغاية منها لن تتحقق لو صُرفت على أشخاص مجهولين لا يملكون القدرة على التأثير في مجتمعاتهم، وهو ما يعزز ما ذهبنا إليه من أن هؤلاء الأسرى كانوا ذا أهمية بحيث يخدمون الأهداف التونسية.

6. خاتمة:

تقدم لنا الدفاتر الجبائية رقم 180-2144-2145 جانب مهم من العلاقات بين الإيالات الثلاثة خلال النصف الثاني من القرن 18م، لما احتوا عليه من قوائم طويلة بهدايا واحسانات صرفت للجزائريين والطرابلسيين، بما فيها ما خصص لافتكاك البعض منهم الموجودين في الأسر. بالرغم من النوايا السياسية التي كانت وراء هذه الإحسانات عامة وافتداء الأسرى



بالخصوص، فإننا لا يمكن أن ننفي الجانب التضامني بين الأقطار الإسلامية والنابع من شعورها بوحدة مصيرها في مواجهة الأخطار المشتركة.

هذا العدد وإن كان صغيرا مقارنة بالعدد الكبير للأسرى المغاربة في أوروبا فإنه لا يمثل سوى جزء من مجهودات السلطة الرسمية في تونس كما أن هذا الرقم وإن كان صغيرا فإنه جزء زهيد من حجم الإحسانات التي قدمها بايات تونس إلى الجزائريين خلال النصف الثاني من القرن 18م.

المختصرات:

أ و ت : الأرشيف الوطني التونسي.

الهوامش:

¹ أ و ت، الدفتر الجبائي رقم 180، ص 1.

² توفيق، بن زردة: (إحسانات بايات تونس لجماعة الحناشنة 1170هـ/1756م- 1192هـ/1779م من خلال الدفترين 2145، 2144 بالأرشيف التونسي)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، المجلد 10، العدد 1، 2017، ص 273. (ص 270-289)

³ منصف، الفخاخ: موجز الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي، منشورات الأرشيف الوطني التونسي، تونس، (د ط)، 1990، ص 284.

⁴ نفسه، ص 284.

TR: Monnereau Et ⁵ Diego, De Haëdo :Topographie Et Histoire Générale D'Alger, A. Berbrugger, 1870, P 74.

⁶ La ROUSSE Dictionnaire de Français, France, 2008, P 94.

⁷ ibid., P 318.

⁸ Venture, de Paradis : Alger aux 18^{eme} siècle, Ed : BOUSLAMA , TUNIS, 2 Ed, P 39.

⁹ ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص 286-287.

¹⁰ نفسه، ص 289.

¹¹ ابن رقية، التلمساني: الزهرة الائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تح: خير الدين سعيد الجزائري، أوراق ثقافية للنشر والتوزيع، جيجل، ط1، 2017، ص 84.

¹² حنيفي، هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2008، ص 68.

¹³ المنور، مروش: دراسات عن الجزائر في اعهد العثماني: القرصنة الأساطير والواقع، ج2، دار القصة للنشر، الجزائر، (د ط)، 2009، ص 148.



- ¹⁴ بليل، رعمونة، (دور العمل البحري في اقتصاد ايلة الجزائر خلال القرن 18م)، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد 2، العدد 1، 2010، ص ص 20-24. (صفحات 19-30)
- ¹⁵ Michel, Fontenay: «Pour une géographie de l'esclavage méditerranéen aux temps modernes», Cahiers de la Méditerranée, Éd: Centre de la Méditerranée moderne et contemporaine, 2002, P 25.
- ¹⁶ Leila, Maziane : « Les captifs européens en terre marocaine aux XVII^e et XVIII^e siècles », Cahiers de la Méditerranée, Éditeur Centre de la Méditerranée moderne et contemporaine, 2002, P313.
- ¹⁷ Daniel, Panzac : « Les esclaves et leurs rançons chez les barbaresques (fin début XIX^e siècle », Cahiers de la Méditerranée, Éd : Centre de la -XVIII^e Méditerranée moderne contemporaine, 2002, P109.
- ¹⁸ Ibid., P 108.
- ¹⁹ Maximiliano, Barrio Gozalo : « Esclaves musulmans en Espagne au xviii^e siècle », Cahiers de la Méditerranée, Éd Centre de la Méditerranée moderne et Contemporaine, 15 décembre 2013, P 36.
- ²⁰ المنور، مروش: المرجع السابق، ج2، ص 207.
- ²¹ Anne, Brogini: « Une activité sous contrôle : l'esclavage à Malte à l'époque moderne », Cahiers de la Méditerranée, Ed : Centre de la Méditerranée moderne et Contemporaine, 15 décembre 2013, PP 51-53.
- ²² سعيود، ابراهيم: الأسرى المغاربة في إيطاليا خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر 2 بوزريعة، قسم التاريخ، 2009-2010، ص 158. (غير منشورة)
- ²³ نفسه، ص ص 159-161.
- ²⁴ أ. و. ت، الدفتر: 2144، ص 3.
- ²⁵ نفسه، ص 205.
- ²⁶ نفسه، ص 2.
- ²⁷ أحمد، قاسم: أوضاع تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم، شهادة التعمق في البحث، جامعة تونس، ص 161.
- ²⁸ رضا، بن رجب: يهود البلاط ويهود المال في تونس العثمانية، دار المدار الإسلامي، لبنان، ط1، 2010، ص ص 312-313.
- ²⁹ أحمد، قاسم: المرجع السابق، ص 162.
- ³⁰ هو الشيخ الصالح الصوفي الثري أبي الغيث القشاش (1551-1623) له زاوية تحمل اسمه زاوية القشاشين بقفصة، وهو صهر الشيخ تاج العارفين البكري. للمزيد يُنظر: محمد، محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 2، 1994، ص 117.
- ³¹ أحمد، قاسم: المرجع السابق، ص 162.



³² Rouard, De Card: Traités De La France Avec Les Pays De l'Afrique Du Nord Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc, Éditeur : A. Pédone, PARIS, 1906, p p113-114.

³³ أوت، السلسلة التاريخية H، الصندوق 11، الملف 59، الوثيقة 01.

³⁴ هو داوي تونس تولى الحكم بعد الداوي موسى سنة 1017هـ (1609) توفي في 17 شوال 1019هـ (1610). للمزيد يُنظر: محمد، مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواري و محمد محفوظ، مج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص ص 89-90.

³⁵ أحمد، قاسم: المرجع السابق، ص 164.

³⁶ عمار، بن خروف: العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في القرن 18م/12هـ، دار الأمل، تيزي وزو، (د ط)، 2017، ص 221.

³⁷ أ. و. ت، الدفتر: 2144، ص 177-189 - 210-302.